فلسفة الشّهادة

رؤية تحليليّة في ضوء قوّة الإدراك ومتعلّقاته

الكتاب: فلسفة الشَّهادة
رؤية تحليليّة في ضوء قوَّة الإدراك ومتعلَّقاته
تأليـف: أكرم بركات
الناشـر: بيت السراج للثقافة والنشر
الطبعة: الأولى
طباعة: DBOUK
009613336218

فَلْسَفَةُ الشَّهَادَةِ

رؤية تحليليّة في ضوء قوَّة الإدراك ومتعلّقاته

أكرم بركات

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الشهادة وسام يتضمّن قيمة إنسانيّة عالية تُمنح لمن يُقتل لأجل معتقده أو في سبيل قضيّة وطنيّة أو قوميّة أو إنسانيّة بغضّ النظر عن دينيّة تلك العقيدة أو مذهبيّتها، وكذا عن التوجّهات الخاصّة لتلك القضيّة والتي تختلف بين فئة وأخرى، وبالتالي فالشهادة في عنوانها العام تعبِّر عن كمال يحترمه الناس، وإن اختلفوا في محقِّقاته، فهي كـ«**ليلى**» العارِف، يتغنّى الجميع بحبّها، وإن اختلفوا في الحقيقة التي تجسدها.

وفي الإسـلام للشهادة مقام واهتمام وخصوصيّة

لا نجدها في سائر الأديان والمعتقدات والاتجاهات، فالنصوص الدينيّة لم تحصر قيمة «**المقتول في سبيل الله**» بحسب المصطلح القرآنيّ بالثناء عليه وتقديره واحترامه والافتخار به، بل أكّدت على مصيره الاستثنائيّ بعد مفارقة روحه لبدنه، وهو «**الحياة**» الخاصّة التي ترقى كثيراً عن الحياة الإنسانيّة التي نعهدها في هذه الدنيا.

وتأكيداً على هذه الحياة الاستثنائيّة نهى القرآن الكريم عن الاعتقاد بأنّ المقتول في سبيل الله «**ميِّت**» كسائر من يموت من الناس، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٧٠ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

(١) سورة آل عمران، الآيات ١٦٩-١٧١.

بل أكّد القرآن الكريم على لزوم التأدّب اللسانيّ عند ذكر المقتول في سبيل الله بأن لا يقال له: «**ميّت**»؛ لأنّه حيّ بتلك الحياة الاستثنائيّة، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾[1].

إضافةً إلى هاتين الآيتين زخرت الأحاديث الشريفة المرويَّة عن نبيّ الإسلام ﷺ وأهل بيته عليهم السلام ببيان تفاصيل تلك الحياة الخاصة التي يتمتع بها الشهيد بعد قتله، من قبيل ما ورد عن الرسول الأكرم ﷺ: «**للشهيد سبع خصال من الله:**

الأولى: أول قطرة من دمه مغفور له كلّ ذنب.

والثانية: يقع رأسه في حجر زوجتيه من الحور العين[2]**، وتمسحان الغبار عن وجهه فتقولان: مرحباً بك ويقول هو مثل ذلك لهما.**

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٤.
(٢) ينبغي فهم هذا النصّ في ضوء كون عالم البرزخ مثاليًّا، لا ماديًّا، كما سيتبيّن لاحقًا.

والثالثة: يكسى من كساء الجنة.

والرابعة: يبتدره خزنة الجنة من كل ريح طيبة أيّهم يأخذ معهم.

والخامسة: أن يرى منزله.

والسادسة: يقال لروحه: اسرح في الجنة حيث شئت.

والسابعة: أن ينظر في وجه الله، وإنّها لراحة لكل نبيّ وشهيد»[1].

وما ورد عنه ﷺ: «**ما من نفس تموت لها عند الله خير يسّرها أنّها ترجع إلى الدنيا، ولا أنّ لها الدنيا وما فيها، إلاّ الشهيد، فإنّه يتمنى أن يرجع، فيقتل في الدنيا، لما يرى من فضل الشهادة»**[2].

(١) الطوسي، محمد بن حسن، تحقيق حسن الخرسان، ط٤، طهران، دار الكتب الإسلامية،١٣٦٥هـ.ش، تهذيب الأحكام، ج٦، ص١٢١.

(٢) النيسابوري، مسلم، صحيح مسلم، (لا. ط)، بيروت، دار الفكر، (لا.ت)، ج ٦، ص٣٥.

سؤالان حول الشهادة في النصوص الدينيّة

إنّ المتأمّل في ما ورد في نصوص القرآن الكريم والأحاديث الـواردة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام يقف أمام سؤالين إشكاليّين يُشكّلان محور هذا البحث، وهما:

١- كيف نفهم المنَّ الإلهيّ المركَّز في الآيتين الكريمتين على كون المقتول في سبيل الله حيّاً في ضوء تأكيد النصوص الدينيّة الأخرى على حياة غير المقتول في سبيل الله بعد موته، سواء حياة المعذَّبين في البرزخ، كما يفيده قوله تعالى: ﴿أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارًا﴾[1]، مع ملاحظة أنّ «**الفاء للتعقيب، والتعذيب مشروط بالحياة**»[2]، أو حياة المنعَّمين، كما يفيده الحديث الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ أرواح المؤمنين لفي**

(١) سورة نوح، الآية ٢٥.

(٢) الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، (لا،ط)، (لا،ت)، ج٩، ص ٨٩.

شجرة من الجنة، يأكلون من طعامها، ويشربون من شرابها، ويقولون: ربّنا أقم الساعة لنا، وأنجز لنا ما وعدتنا، وألحق آخرنا بأوّلنا»[١]، أو حياة الموتى بشكل عام، كما يفيده الحديث النبويّ: «**من مات فقد قامت قيامته»**[٢]، وكذا الحديث الوارد عنه ﷺ: «**القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران»**[٣].

فإذا أمكننا بسهولة أن نميِّز في منِّ الله تعالى: بين حياة الشهيد المرزوق رزقاً حسناً، وبين الأحياء المعذَّبين في حياتهم البرزخيّة، لكن كيف نميِّز في ذلك المنّ الإلهيّ بين حياة الشهيد وسائر الموتى المؤمنين المرزوقين أيضاً بالرزق الحسن كما تقدّم في الرواية السابقة؟

(١) الكلينيّ، محمّد، الكافي، تحقيق علي أكبر الغفاري، (لا، ط)، بيروت، دار الأضواء، ١٩٨٥م، ج٣، ص ٢٤٤.
(٢) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، تصحيح محمّد مهدي الخرساني، (لا، ط)، طهران، دار الكتب الإسلاميّة، ١٣٩٦هـ، ج٥٨، ص ٧.
(٣) المصدر السابق، ج٦، ص ٢٠٥.

٢- على الرغم من الوضوح في إطـلاق مصطلح الشهيد على المقتول في سبيل الله في الأحاديث الشريفة كما يظهر ممّا تقدّم، إلاّ أنّ الملاحظ أنّ هذا المصطلح بالمعنى المتقدّم ليس وليد القرآن الكريم الذي لم يستخدم مصطلح الشهيد والشهداء بالمقتول في سبيل الله بشكل خاصّ، بل استعمله بمعانٍ أخرى كالعارف المتيقظ غير الغافل كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[١]. وكالإنسان الحاضر الشاهد حدثاً بحيث يؤهِّله ذلك للإدلاء بإفادة حول ما حصل، كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾[٢]، وكالإنسان ذي المقام الرفيع يوم القيامة من دون تحديد قرآنيّ في معنى شهادته كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ

(١) سورة ق، الآية ٣٧.
(٢) سورة البقرة، الآية ٢٨٢.

ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[1]

في ضوء ما تقدّم يُطرح التساؤل حول النسبة بين المقتول في سبيل الله والشهيد بحسب المصطلح القرآنيّ على احتمالاتٍ ثلاثة:

١-التساوي بينهما، بأن يكون كلّ مقتول في سبيل الله شهيداً، وكلّ شهيد مقتولاً في سبيل الله.

٢-المقتول في سبيل الله أعمّ من الشهيد، بأن يكون المقتول في سبيل الله تارة شهيداً وأخرى غير شهيد.

٣-الشهيد أعمّ من المقتول في سبيل الله، بأن يكون الشهيد تارة مقتولاً في سبيل الله وأخرى غير مقتول.

هذا السؤالان هما محور هذا البحث الذي سوف نقسمه إلى المبحَثين الآتيين.

---

(١) سورة النساء، الآية ٦٩.

المبحث الأوّل:
حياة المقتول في سبيل اللّه

نجيب في هذا الفصل عن السؤال الذي تقدَّم حول حياة المقتول في سبيل الله، فما هي هذه الحياة الخاصّة التي تبقى في دائرة الاستثناء والمنّ الإلهيّ والتعظيم مع الاعتقاد بأنّ أهل الإيمان من الموتى يكونون في عالم البرزخ أحياءً يتنعّمون؟

وهو ما نعرضه ضمن المطالب الآتية:

١- حياة المقتول في سبيل الله بين الحقيقة والمجاز.

٢- حقيقة الحياة.

٣- ميزة حياة الشهيد عن غيره من الموتى الأحياء.

المطلب الأوّل: حياة المقتول في سبيل الله بين الحقيقة والمجاز

التفسير المجازي لحياة المقتول في سبيل الله

فسّر جملة من المفسِّرين حياة المقتول في سبيل الله بتفسير مجازي، بمعنى بقاء الاسم والذكر الجميل على مرِّ الدهور[1]، أو بمعنى أنّهم «**كالأحياء عند ربِّهم؛ لأنّه يكتب لهم أجورهم إلى يوم القيامة، فكأنّهم أحياء في الآخرة**»[2]، وينطلق بعض هؤلاء في تفسيرهم المجازيّ لحياة المقتول في سبيل الله من عدم الإيمان بالحياة في عالم البرزخ، أي عالم ما بين الموت ويوم القيامة، وذلك لاعتقادهم بأنّ «**النفس غير مجرّدة عن المادة، وأنّ الإنسان يبطل وجوده بالموت، ولانحلال التركيب، ثم يبعثه الله إلى**

---

(١) الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ط٥، بيروت، الأعلمي، ١٩٨٣م، ج١، ص ٣٤٥.

(٢) السمرقندي، نصر، تفسير السمرقندي، تحقيق د.محمود مطرجي، (لا،ط)، بيروت، دار الفكر، (لا،ت)، ج١، ص ٢٨٩.

القضاء يوم القيامة»[١]، وقد نسب الفخر الرازي إلى جمهور المتكلمين[٢] بأنّ الإنسان عبارة عن هذه البنية المحسوسة، وعن هذا الجسم المحسوس[٣].

ويلتقي هؤلاء في تفسيرهم لحياة المقتول في سبيل الله مع الماديين النافين لحياة الآخرة؛ فإنّ النافين للعالم الآخر، واجهوا مشكلة تتعلّق بحاجة المجتمع إلى ما يحفِّز أبناءه على التضحية بالنفس لأجل القضايا ذات الأهمية الكبرى، كالدفاع عن الوطن من غزو الآخرين، أو نشر الفكر الذي يؤمنون به حينما يحتاج إلى تقديم بالنفس في سبيله، فكيف يدعو هؤلاء إلى الفداء والتضحية مع عدم اعتقادهم بحياة أخرى؟!

لقد دعاهم هذا الأمر إلى إنشاء قيم حاولوا أن يقنعوا الناس بها لحلّ المشكلة، ومن هذه القيم أنّ الإنسان

---

(١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص ٣٤٥.
(٢) المراد: المتكلمون من أهل السنّة.
(٣) أنظر: الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، ج٢١، ص ٤٠.

الحرّ يجب عليه أن يفدي بنفسه وطنه، أو عقيدته، أو شرفه، لينال بذلك الشهادة التي تعني الحياة الدائمة بحسن الذكر وجميل الثناء.

الحياة المجازية للمقتول في سبيل اللّه عند الماديين في دائرة النقاش

من الواضح أنّ النقاش في تفسير حياة الشهيد المجازية يختلف بين المؤمنين بالحياة الآخرة والنافين لها، فمادة النقاش مع الفريق الأوّل هي النصوص الدينية، بخلاف الفريق الثاني الذي لا يؤمن بها، ونبدأ النقاش مع الفريق الماديّ الداعي إلى الشهادة المجازية بمعنى الذكر الحسن، والثناء الجميل بما طرحه الشهيد السيد محمد باقر الصدر من أنّ أفعال الإنسان تنطلق من حبِّه لذاته، فحبُّ الذات هو المنطلق لكلِّ تصرّفات الإنسان في هذه الحياة، فهو يدرس لأجل كمال ذاته، ويعمل لذلك، ويتزوّج لذلك، وينجب الأولاد لشعور ذاته بالسعادة، ولأجل استمرار ذاته عبر الأولاد، وهكذا.

وهنا يُطرح سؤال حول ما يدعو الإنسان ليضحّي بنفسه للدفاع عن وطنه أو قضية ما، فإن كان هذا الإنسان يؤمن بالآخرة، وبأنّ هذه التضحية ستجعل ذاته تتكامل في عالم هو أفضل من هذا العالم، وسوف تسعد ذاته بذلك، فإنّه يقدم على تلك التضحية انطلاقاً من حبِّه لذاته، أمّا حين لا يكون هذا الإنسان مؤمناً بالعالم الآخر، بل يعتقد بأنّ ذاته تنتهي بالموت، فما الذي يدعوه إلى تلك التضحية بالنفس، مع أنّه سوف يفقد ذاته واستمتاعه في هذه الحياة، فأيّ شرف سيلحقه، وهو قد فقد حياته دون رجوع، وذاته دون عودة، فهل هذا الشيء سوى الوهم؟!

الحياة المجازية للمقتول في سبيل اللّه عند المتديّنين في دائرة النقاش

نعرض أمام المؤمنين بالقرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة حول تفسير الحياة بالمعنى المجازيّ ما يأتي:

أ- إنّ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ

أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ﴾[١]. فإنّ قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ﴾ لا يناسب المعنى المجازي لحياة الشهيد، بل كان المناسب أن يقال: بل أحياء ببقاء ذكرهم الجميل، وثناء الناس عليهم بعدهم؛ لأنّه المناسب لمقام التسلية وتطييب النفوس[٢].

ب- أكّد القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وجود عالم برزخيّ يتوسّط الدنيا ويوم القيامة، تتخلّله حياةٌ يتفاعل فيها الموتى بالنعيم أو العذاب، وقد مرَّت بعض النصوص الواضحة في ذلك، والتي نضيف إليها ما عرضه الفخر الرازي في التفسير الكبير، وابن حزم في المحلَّى في مقام إثبات حياة البرزخ مقابل من أنكر ذلك[٣]، وهي:

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٤.
(٢) أنظر: الطباطبائيّ، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص ٣٤٦.
(٣) حياة البرزخ محلّ اتفاق عند الشيعة، واختلاف عند غيرهمِ من الاتجاهات الإسلامية، وهذا ما دعانا إلى اقتصار الأدلّة على ما عرضه العلمان الرازي وابن حزم من أهل السّنّة.

١- قوله تعالى: ﴿أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾[١]، ففاء التعقيب، وكون التعذيب مشروطاً بالحياة يدلاّن على وجود الحياة بعد الموت قبل القيامة[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[٣]، فمن الواضح أنّ الغدوّ والعشيّ هما قبل القيامة التي تندثر فيها الكواكب[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[٥]، فالخطاب بقوله ﴿ٱرْجِعِىٓ﴾ إنّما هو متوجّه إلى النفس حال الموت، فدلّ هذا على أنّ الشيء الذي يرجع إلى الله عزّ وجلّ بعد الموت يكون حيًّا راضياً عن الله، ويكون راضياً عنه الله، والذي يكون راضياً ليس إلاّ الإنسان،

(١) سورة نوح، الآية ٢٥.
(٢) الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، ج٩، ص ٨٩.
(٣) سورة غافر، الآية ٤٦.
(٤) الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، ج٩، ص ٤١.
(٥) سورة الفجر، الآيتان ٢٧-٢٨.

فهذا يدلّ على أنّ الإنسان بقي حيًّا بعد موت الجسد، والحيّ غير الميّت، فالإنسان مغاير لهذا الجسد[١].

٤- قول الرسول الأكرم ﷺ: «**القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار**»[٢].

٥- قوله ﷺ: «**أنبياء الله لا يموتون، ولكن ينقلون من دار إلى دار**»[٣].

٦- قوله ﷺ: «**من مات فقد قامت قيامته**»[٤].

٧- قوله ﷺ: «**... حتى إذا حمل الميت على نعشه، رفرف روحه فوق النعش، ويقول: يا أهلي، ويا ولدي، لا تلعبنَّ بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعتُ المال من حلّه وغير حلّه، فالغنى لغيري والتبعة عليَّ، فاحذروا مثل ما حلّ بي**»، فالنبيّ ﷺ يُصرّح

(١) الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، ج٩، ص ٤١.
(٢) المصدر السابق، ص ٤٢.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) المصدر السابق نفسه.

بأنّه بعد موت الإنسان يبقى هناك مَن ينادي، ويقول: يا أهلي، ويا ولدي، جمعتُ المال من حلّه وغير حلّه، ومعلوم أنّ الذي كان الأهل أهلاً له، وكان جامعاً للمال من الحرام والحلال، والذي بقي في رقبته الوبال، ليس إلاّ ذلك الإنسان، فهذا تصريح بأنّه في الوقت الذي كان فيه الجسد ميتاً محمولاً، كان ذلك الإنسان حيّاً باقياً فاهماً، وذلك تصريح بأنّ الإنسان شيء مغاير لهذا الجسد ولهذا الهيكل»[1].

٨- قوله ﷺ: «**إذا مات الرجل عرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ، إنْ كان من أهل الجنّة فالجنّة، وإنْ كان من أهل النّار فالنّار، ثمّ يقال له: هذا مقعدك الذي تبعث إليه يوم القيامة**»، علّق ابن حزم على هذا الحديث بقوله: «**ففي هذا**

---

(١) أنظر: الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، ج٩، ص ٤٢.

الحديث أنّ الأرواح حسّاسة عالمة مميّزة بعد فراقها الأجساد»[١].

إنّ هذه الأدلّة وغيرها تثبت حياة الإنسان بعد الموت وقبل القيامة، ومع ثبوتها يبطل ما دعا أولئك المفسِّرين لتفسير حياة الشهيد بالحياة المجازية.

ج- إنّ المدخل الرئيسيّ لإثبات وجود الحياة الحقيقيّة للشهيد يكون من خلال إثبات وجود نفس إنسانيّة غير الحسد وهذا ما نبحثه في ما يأتي.

(١) ابن حزم، علي، المحلّى، (لا،ط)، (لا،م)، دار الفكر، (لا،ت)، ج١، ص ٢٦.

المطلب الثاني: حقيقة الحياة

يدرك الناس بشكل عام معنى الحياة، وأنّها مقابل الموت، ويميِّزون بين الموجود الحيّ وغير الحيّ، إلاّ أنّهم رغم تلك المعرفة العامّة، قد يجدون صعوبة في تحديد المعنى الدقيق لمفهوم الحياة.

حياة النبات

إنّ الحياة في العلوم الطبيعيّة تتحقّق في أدنى درجاتها في النبات الذي يعدّونه من الكائنات الحيّة، وبالتالي فإنّ الحياة فيها تشترك مع الحياة الحيوانيّة والإنسانيّة والتي ترتقي في درجتها عن الحياة النباتية.

وقد حدّد مقال علميّ في الموقع الرسميّ لجامعة كامبردج البريطانيّة خصائص الحياة بالحدِّ الأدنى بسبعة أمور هي:

١- الحركة

٢- التنفّس

٣- النموّ (بمعنى استعمال الغذاء لنموّ الخلايا حجماً وعدداً)

٤- الإحساس (بمعنى ردّة الفعل اتجاه أي مؤثّر خارجيّ كالضوء، والحرارة، والجاذبيّة، والمواد الكيميائيّة)

٥- التكاثر

٦- التغذية

٧- التخلّص من الفضلات[١].

وقد عبَّر العلماء قديماً عن هذه الحياة بالقوّة النامية[٢]، ولعلّ تسميتها بالقوة باعتبار أنّ الحياة مقابل الموت، وأصل معناه- كما ذكر ابن فارس-، ذهاب القوّة، وقد استشهد لهذا المعنى باستعمال نبويّ حول الثوم هو: «**من أكل من هذه الشجرة الخبيثة، فلا يقربنّ**

---

(١) Nge pathimo kadhila. CAMBRIDGE ENIVERSITY PRESS-NSSC BIOLOGY MODELE/I/UK

(٢) الراغب الأصفهاني، الحسين(ت ٥٠٢ هـ)، المفردات في غريب القرآن، ط١، مصر، مطبعة الميمنية، ١٣٢٤ هـ ص ١٣٨.

مسجدنا، فإن كنتم لا بدّ آكليها، فأميتوها بطبخها»[١].

ولعلّ هذا المعنى هو المراد من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[٢]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾[٤].

حياة الحيوان

ربّما كانت قـوّة الحياة في الحيوان من ناحية الإحساس الواضح، وكذا قوّة التحرّك بـالإرادة داعيًا لتسميته باللفظ المستمدّ من مادّة الحياة، فأطلق عليه «**حيوان**» وهذه الحياة الحيوانيّة، إضافةً إلى ما تقدّم، من خصائص الحياة الأدنى المتحقّقة في النبات، تمتاز بخصائص إدراكيّة ثلاث، قد يشترك بعضها في أصله مع

(١) ابن فارس، أحمد (ت ٣٩٥ هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، (لا.ط)، قم، مكتب الإعلام الإسلاميّ، ١٤٠٤هـ، ج٥، ص ٣٨٣.
(٢) سورة الأنبياء، الآية ٣٠.
(٣) سورة الحديد، الآية ١٧.
(٤) سورة ق، الآية ١١.

الحياة النباتيّة، لكن يبقى التميُّز في حياة الحيوان في المستوى الإدراكيّ الذي لديه، وهذه الخصائص الثلاث هي:

١- الحسّ، وهو القوة الإدراكيّة للحواس الخمس: البصر والسمع واللمس والشم والذوق.

٢- الخيال، أو القوة التي تتصرّف بالمحسوسات، وتقيس بها، فنلاحظ أنّ القطة، مثلاً، قبل أن تقفز إلى أعلى الجدار، فإنّها تقيس المسافة بين أعلاه والأرض التي تقف عليها، وهكذا نرى الفهد يتباطأ أثناء مراقبة فريسته، فإذا صار على بعد بضعة أمتار يقفز بسرعة ليمسك بها، وتسمى هذه القوّة المتصرفة بالمحسوسات «**الخيال**».

٣- الوهم، أو القوة المتوهَّمة، وهـذه القوة لا تتعلّق بالمادة كالقوّتين السابقتين، بل بالمعنى، وبالتحديد بالمعنى الجزئيّ، وهذا ما نلاحظه في انجذاب الحيوانات نحو أولادها، بل قد نجد ذلك

منعكساً في لغة الجسد كدمعة الفيل والكلب حزنًا وألماً.

وقد عرَّف العلماء قديمًا الحيوانَ بما يرجع إلى هذه القوى بقولهم: الحيوان: جسم نام حسّاس متحرّك بالإرادة، فالجسم النامي هو الجنس الذي يشترك فيه الحيوان مع النبات، والحسّاس المتحرِّك بالإرادة هو الفصل الذي يفترق به الحيوان عن الناس، وإن كان الإفتراق من حيث القوّة الإدراكيّة.

حياة الإنسان

إنّ حياة الإنسان تتضمّن كلّ خصائص النباتات وجميع قوى الحيوان الإدراكيّة الثلاث التي من خلالها يشعر بالسعادة أو الشقاء، باللذة أو الألم، بالاطمئنان أو بالقلق، وما شابه ذلك، فإن كانت الحياة عبارة عن ذلك الشعور، فإنّه لا يكون إلاّ من خلال الإدراك، فمن يرى ولده مريضاً يشعر بالألم، ومن يسمع قصيدة مدح

له من محبٍّ يشعر بالسعادة، في حين أنّ من يموت أغلى الناس لديه من دون علم بذلك لا يشعر بأيّ أسىً، ومن يخسر جميع ماله من دون معرفة له بذلك لا يشعر بأيّ حزن، والخلاصة: إنّ الشعور الإنسانيّ الذي يُعدّ من علامات الحياة ينشأ من إدراك الإنسان وعلمه، فالذي يحرِّك شعور الإنسان ليس وجود الشيء في الواقع، بل علمه وإدراكه بوجود ذلك الشيء.

وما تقدّم كلّه مشترك بين الإنسان وسائر الحيوان في تلك القوى الثلاث، فهل نقف عند هذه المشتركات في تحديد حياة الإنسان، أو أنّ هناك تميّزًا للإنسان عن الحيوان في حقيقة حياته؟ إنّ الإجابة عن هذا السؤال تكمن في تحديد تميّز الإنسان عن الحيوان بعد اشتراكه معه في تلك القوى والخصائص، فإنّ الإنسان يمتاز عن سائر الحيوانات بأنّ لديه إدراكًا أعلى من تلك الإدراكات الثلاثة، وهو الناتج من قوة باطنيّة تستطيع أن تفصل ما تتميّز به الموجودات،

وتتعرّف على المشترك بينهما، فحينما يُلاحظ الإنسان شجرة زيتون، وشجرة تين، وشجرة صنوبر، وشجرة رمَّان، فإنّه يستطيع أن يستخرج المشترك بينها، ويطلق عليها عنوان «**شجرة**» دون إضافةٍ إلى نوع خاصّ.

ويُطلق على هذا العنوان مصطلح «**كلّي**» مقابل الشجرة الخاصّة المحدّدة التي يطلق عليها مصطلح «**جزئيّ**».

وبعبارة ثانية يمكن للإنسان بواسطة هذه القوة الباطنيّة أن «**يقشِّر**» الجزئيات عن ما تمتاز به عن بعضها البعض، ليدرك معنى عاماً مشتركاً هو الكلّي، فحينما يرى سميراً وزيداً وسلمى وهدى فإنّه يستطيع بتلك القوة أن يجرِّدهم في ذهنه عن كلّ ما يتميّزون به من جنس ولون وطول ووزن وانتماء وغير ذلك، ليدرك المشترك بينهم وهو «**إنسان**»، وهذا المعنى الذي أدركه هو الكلّي.

ممّا تقدّم نعرف أنّ الإنسان يتميّز عن الحيوانات بأنّه يدرك الكلّيات، بينما سائر الحيوانات لا تدركها، بل يقتصر إدراكها على الجزئيّات.

ويصطلح على القوة المدركة للكلّيات بـ«العقل» الذي به استطاع الإنسان أن يطوِّر المجتمع البشريّ، فالحيوان ما زال من ملايين السنين في الغابة دون أن يُحدث فيها أيّ تطوير؛ لأنّه يفتقد لتلك القوة التي تدرك الكلّيات بينما استطاع الإنسان بإدراكه للكلّيات أن يؤسِّس العلوم والفنون التي شكّلت قواعد كليّة لارتقاء المجتمع الإنسانيّ.

وللإنسان العاقل ميزة عن الملائكة التي هي عقول أيضًا، لكنّها تفترق عن الإنسان في كونها عقولاً محضة مضطرة للانجذاب في سيرها نحو الله تعالى ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾[1]، بينما الإنسان هو عاقل حرّ

(١) سورة التحريم، الآية ٦.

له إرادة مختارة لا مضطرة، من خلال انضمامها للعقل يحقِّق الإنسان أفضل كمال له، وذلك برقيِّه عن ملائكة الله تعالى.

إنّ إدراك الإنسان للكلّيات، يتطوّر مع تقدّمه في مساره الاختياريّ، ويفتح له أبوابًا جديدة من الشعور بالسعادة من خلال تحقيق انجازات كبرى في مسيرته الفرديّة والاجتماعيّة، وبهذا الأمر تتميّز حياة الإنسان عن حياة سائر الحيوانات بعدما تميَّز عن الملائكة بسيره الاختياريّ.

المطلب الثالث: ميزة حياة الشهيد عن غيره من الموتى الأحياء

إنّ ما تقدّم من بيان أنواع الإدراك لدى الإنسان يشكِّل مدخلاً لفهم الحياة الخاصّة الاستثنائيّة للمقتولين في سبيل الله، فصحيح أنّ الموتى من أهل الإيمان يُرزقون في برزخهم، كما تقدّم ذلك في حديث الإمام الصادق عليه السلام، إلا أنّ حياة المقتولين في سبيل الله هي أرقى وأعظم من حياة أولئك المؤمنين، فهي الحياة التي قيّدها الله تعالى بقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ بما يعبِّر عن مقام خاصّ يصطلح عليه البعض بمقام «**العنديَّة**»، الذي يشعر الإنسان فيه بغاية السعادة المأمولة التي يمكن مقاربتها في العوالم الثلاثة القادمة قبل جنّة الخلد.

أ- حياة المقتول في سبيل الله في عالم البرزخ

عرض القرآن الكريم حياة المقتول في سبيل الله البرزخيّة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ

ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ ۞يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

في هذه الآيات تتجلى حياة المقتولين في سبيل الله في العناوين الآتية:

١- الرزق المتواصل، فـ «**يرزقون**» فعل مضارع يفيد الاستمرار.

٢- الفرح بالثواب.

٣- الاستبشار بإلتحاق رفاق الجهاد.

٤- الاطمئنان، فهم لا خوف عليهم، ولا يحزنون، فالخوف هو حذر الإنسان أن يفقد عزيزًا عليه، والمقتول في سبيل الله في مقام العنديَّة واجدًا لله، فلا يخاف فقد غيره، والحزن يتعلّق بالحالة النفسيّة التي تعتري الإنسان حينما يفقد عزيزًا

---

(١) سورة آل عمران، الآيات ١٦٨-١٧٠.

عليه، والمقتول في سبيل الله وجد الله الذي هو خير من كلّ شيء، فلا يحزن على شيء.

٥- الاستبشار بالنعيم المستقبليّ.

إضافةً إلى هذه الآيات وردت روايات عديدة حول حياة الشهيد في البرزخ كالحديث النبويّ السابق حول الخصال السبع للشهيد التي تتضمّن العناوين الآتية:

١- غفران الذنوب

٢- حور العين

٣- كساء الجنة

٤-طيب الجنة

٥- منزل الجنة

٦- سراح الروح

٧- النظر في وجه الله.

إنّ الخصلة الأولى تبعد الإنسان من قلق الماضي الذي يتولّد من التفكير بذنوبه السابقة، وما قد يترتّب عليها

في المستقبل ممّا يقف عقبةً أمام شعوره بالسعادة، فالشهادة تلغي ذلك القلق بغفران الذنوب.

أمّا الخصال الثانية إلى السادسة، فإنّها تعبِّر عن مشابه أعلى لمناشئ السعادة في الدنيا، والتي يمكن تصوّرها في الاكتفاء العاطفيّ، والثياب الأنيقة، والعطر الطيِّب، والمنزل الجميل، والسياحة المفتوحة، فإنّ هذه العناوين هي مناشئ سعادة الإنسان في الدنيا، وبالتالي فإنّ الحديث النبويّ الشريف يفيد أن ما يُعطاه الشهيد هي هذه الأمور بأرقى أحوالها، فالاكتفاء العاطفيّ عبَّر عنه بالحضانة في حجر زوجتين من الحور العين، وهو الذي يعبِّر عن الملء الكامل للناحية العاطفيّة في عالم البرزخ المثاليّ لا يتناسب مع اللذة الجنسية الماديّة؛ لكونه ليس عالمًا ماديًا، ولعلّه لذلك لم يورد الحديث النبويّ ما يتعلّق بالطعام والشراب.

إضافةً إلى المنحة العاطفيّة يكمل الحديث النبويّ

عطاء الله للشهيد بما يعبِّر عن ملء رغباته بما كان يحبّ في الدنيا بصورة أكمل، لذا كان الحديث عن الثياب والعطر والمنزل والسياحة.

وعلى الرغم من أهميّة ما تقدَّم من خصال ست تحقّق السعادة الكبرى للإنسان، إلاّ أنّ الخصلة السابعة هي الأهمّ والأعظم وهي أنّه ينظر في وجه الله، وأنّها راحة لكلّ نبيٍّ وشهيد، أنّه تعبير عن الوصول إلى الدرجة الكاملة التي تعبِّر عن غاية رضا الله تعالى، إنّه وصال الحبيب مع حبيبه، والخليل مع خليله، والعاشق مع معشوقه، فالمحبَّ حبًّا حقيقيًا يقدِّم لقاء حبيبه ورضا حبيبه على كلِّ لقاء وأُنس، ألسنا نرى في حياتنا أمًّا تقدِّم حبَّ ولدها واللقاء به على كلّ ما في هذه الدنيا من متاع ولذّات، فكيف بحبِّ الله تعالى، وأنس اللقاء معه، إنّه أهمّ من الحور والثوب والطيب والمنزل والسياحة إنّه مقام العنديَّة الذي هو غاية سعادة الشهيد.

ب- حياة الشهيد بين النفختين

قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾[١].

إنّه حديث عن نفخ الصور الأوّل الذي هو نفخ الصعق الذي يسبت فيه جميع الأحياء الذين يشملون النفوس الإنسانيّة في عالم البرزخ والجنّ والملائكة فالكلّ يصعق ويسبت، ويذهب إدراكه وعلمه، ويبقى الجميع في سبتهم وسكونهم حتى يُنفخ في الصور نفخة الإحياء ليوم القيامة. لكن هناك استثناء لعبادٍ كاملين ذوي حياة قويَّة لا ينالها الصعق، فيبقون واعين مدركين عارفين يعيشون سعادة الحياة بين النفختين، وهم الذين عبَّرت الآية عنهم بقوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ فمن هؤلاء المكرَمون الأحياء؟

(١) سورة الزمر، الآية ٦٨.

نقل الشيخ الطوسيّ في تفسير جوامع الجامع عن ابن جبير في تفسيره لـ ﴿مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾: هم الشهداء متقلّدوا السيوف حول العرش[١].

وقد ورد أنّ ابليس كان عارفًا بمقام ومنزلة من يكون حيًّا بين النفختين، فطلب من الله تعالى أن يبقيه حيًّا إلى يوم البعث، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[٢]، وهو يعني أن يبقى حيًّا بين النفختين، لكن الله تعالى أجابه رافضًا ذلك الطلب: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾[٣]، الذي يُراد منه يوم النفخ الأوّل.

ج- حياة الشهيد يوم القيامة

ورد عن الإمام عليّ عليه السلام حديثًا طويلاً يصف فيه حياة الشهيد يوم القيامة بقوله: «**...إذا كان يوم القيامة يخرج من قبره شاهراً سيفه تشخب أوداجه دمًا، اللون**

(١) الطبرسيّ، تفسير جوامع الجامع، ط١، قم، مؤسسة النشر الإسلاميّ، ١٤٢١هـ، ج٣، ص ٢٢٩.
(٢) سورة الحجر، الآية ٣٦.
(٣) سورة الحجر، الآيتان ٣٧-٣٨.

لون الدمّ، والرائحة المسك يخطو في عرصة القيامة. فوالذي نفسي بيده لو كان الأنبياء على طريقهم لترجّلوا لهم لما يرون من بهائهم»[١].

إضافةً إلى هذا الوصف الرائع لحياة الشهيد يوم القيامة ورد حديث نبويّ حول مقام الشفاعة للشهيد وهو: «**ثلاثة يشفعون إلى الله فيشفَّعون: الأنبياء، ثمّ العلماء، ثمّ الشهداء**»[٢].

إنّ ما تقدّم في مقام ومكانة المقتول في سبيل الله في تلك العوالم يدلّ على تميّز حياته عن حياة الآخرين، فالمقتول في سبيل الله، وإن كان يشترك بعد قتله معه سائر الموتى المؤمنين في الحياة بعد الموت، بل في الرزق في تلك الحياة، إلا أنّ حياة المقتول في سبيل الله هي أرقى منزلةً ومكانةً وأقوى حضوراً وفاعليّة، بما يتلاءم مع مقام «**العنديّة**» ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، الذي

(١) المجلسيّ، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج٩٧، ص ١٣-١٤.
(٢) المصدر السابق، ج٨، ص ٣٤.

هو عنوان المائز بين هذين النوعين من الحياة، وبهذا نعرف الجواب عن الإشكاليّة الأولى التي هي سؤال هذا المبحث، ويبقى السؤال عن ميزة إضافيّة للشهداء قد تفهم من خلال التعمُّق بمصطلح الشهادة الذي أطلقته السُّنّة الشريفة على المقتول في سبيل الله، بينما عرضه القرآن الكريم في مقام آخر يشترك مع المقتول في سبيل الله بتلك العنديَّة، وهو ما أشار إليه القرآن بقوله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾[1]، فهل من فارقٍ بين المقتول في سبيل الله والشهيد بحسب المصطلح القرآني أم هما واحد، وهذا ما سوف نقاربه في المبحث الآتي.

---

(١) سورة الحديد، الآية ١٩.

المبحث الثاني:
الشهيد بين المشاهِد والشّاهد

إنّ التعمّق في مصطلح الشهيد في القرآن الكريم لمعرفة معناه الدّقيق لا سيّما بالنسبة إلى مصطلح المقتول في سبيل الله يدعونا إلى البحث في مطلبين نقارب في أوّلهما مصطلح الشهيد في القرآن الكريم عرضاً وتحليلاً، وفي ثانيهما نقارب نقاط الالتقاء والافتراق بين المقتول في سبيل الله والشهيد في القرآن الكريم معنى ومنزلةً.

المطلب الأوّل: الشهيد في القرآن الكريم

أطلق القرآن الكريم صفة الشهيد على العديد من الذوات، منها:

أ- الله عزّ وجلّ:

قال الله تعالى:

١- ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾[(١)].

٢- ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[(٢)].

٣- ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾[(٣)].

٤- ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾[(٤)].

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٩٨.
(٢) سورة المائدة، الآية ١١٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية ١٩.
(٤) سورة يونس، الآية ٤٦.

٥- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

٦- ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[2].

٧- ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[3].

٨- ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[4].

٩- ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[5].

---

(١) سورة الحج الآية ١٧.
(٢) سورة سبأ، الآية ٤٧.
(٣) سورة فصلت، الآية ٥٣.
(٤) سورة المجادلة، الآية ٦.
(٥) سورة البروج، الآية ٩.

ب- الرسول محمد ﷺ:

﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾(١).

ج- الربَّانيّون والأحبار:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾(٢)

د- الحاضر المشاهد لحدث بما يؤهله للإدلاء بإفادةٍ حوله

قال الله عزّ وجلّ:

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا

(١) سورة البقرة، الآية ١٤٣.
(٢) سورة المائدة، الآية ٤٤.

يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟
شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ
وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا
فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا
دُعُوا۟ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ
ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟
إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ
عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَاۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ وَلَا
يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْۗ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

٢- ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[2].

قال العلامة الطباطبائي في تفسيرها: «**أي حضرت عند الله تعالى كلّ نفس معها سائق يسوقها، وشاهد يشهد بأعمالها، ولم يصرِّح تعالى بكونهما من الملائكة، أو**

(١) سورة البقرة، الآية ٢٨٢.
(٢) سورة ق، الآية ٢١.

بكونهما من الكاتبين، أو من غير الملائكة، غير أنّ السابق إلى الذهن من سياق الآيات أنّهما من الملائكة»[١].

و- الإنسان العارف المتيقِّظ غير الغافل

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[٢].

ز- فئة خاصّة من المنعم عليهم

قال الله عزّ وجلّ:

١- ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[٣].

٢- ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٤].

---

(١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١٨، ص ٣٤٩.
(٢) سورة ق، الآية ٣٧.
(٣) سورة النساء، الآية ٦٩.
(٤) سورة الزمر، الآية ٦٩.

٣- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾[1].

الملاحظ في الآيـات السابقة أنّ ألفاظ الشهيد والشهداء ترجع إلى معنىً واحد يدور حول المعرفة، إلاّ أنّ هذه المعرفة تختلف درجاتها، بدءًا من المعرفة المستفادة من شهادة الإنسان على حدثٍ ما كالبيع، وهي تكون من خلال الحواس، إلى المعرفة الإلهيّة الكاملة المستفادة من كونه عزّ وجلّ شهيدًا على كلِّ شيء؛ إذ الوجود كلّه حاضر عنده دون وسيط.

الشهيد وسرُّ التسمية

لعلّ إصرار النصوص النبويّة الشريفة على إطلاق الشهيد عن المقتول في سبيل الله تعالى لِما لهذا اللفظ من صفة معرفيّة إدراكيّة خاصّة، أراد الإسلام أن يؤكِّد

(١) سورة الحديد، الآية ١٩.

عليها لما تحمله من معنى يدلُّ على المقام والخصوصية للمقتول في سبيل الله.

ويظهر هذا المقام وتلك الخصوصية من خلال التأمل بالألفاظ التي استُعملت بمعنى الإدراك والمعرفة، وقد ذكر العلامة الطباطبائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ «**أنّ الألفاظ المستعملة في القرآن الكريم من أنواع الإدراك كثيرة، ربما بلغت العشرين،كالظن، والحسبان، والشعور، والذكر، والعرفان، والفهم، والفقه، والدراية، واليقين، والفكر، والرأي، والزعم، والحفظ، والحكمة، والخبرة، والشهادة، والعقل....**»[١].

وعند المقارنة بين هذه الألفاظ في مدلولاتها الإدراكيــة، وبين الشهادة التي من مادتها صيغت صفة الشهيد، يتبيَّن الفرق المقامي. وهذا يظهر من العرض الآتي الذي فصَّله صاحب الميزان حول معاني المصطلحات السابقة، وهو[٢]:

---

(١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج٢ ص ٢٤٧.
(٢) انظر المصدر السابق، ص ٢٤٧، ٢٤٨.

الظنّ: التصديق الراجح، وإن لم يبلغ حدّ الجزم والقطع.

الحسبان: مثل الظنّ بفارق بسيط.

الشعور: الإدراك الدقيق، أُخِذ من الشَّعر لدقَّته، ويغلب استعماله في المحسوس دون المعقول.

الذكر: استحضار الصورة المخزونة في الذهن بعد غيبته عن الإدراك، أو حفظه من أن يغيب عن الإدراك.

العرفان: تطبيق الصورة الحاصلة في المدركة على ما هو مخزون في الذهن.

الفهم: انفعال الذهن عن الخارج بانتقاش الصورة فيه.

الفقه: التثبُّت في هذه الصورة المنتقشة فيه، والاستقرار في التصديق.

الدراية: التوغُّل في ذلك التثبُّت حتى يدرك خصوصية المعلوم، وخباياه، ومزاياه، ولذا يستعمل في مقام

تضخيم الأمر وتعظيمه. قال الله تعالى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾[1].

اليقين: اشتداد الإدراك الذهنيّ، بحيث لا يقبل الزوال.

الفكر: سير ومرور على المعلومات الموجودة الحاضرة لتحصيل ما يلازمها من المجهولات.

الرأي: التصديق الحاصل من الفكر والتروِّي، غير أنه يغلب استعماله في العلوم العملية مما ينبغي فعله، وما لا ينبغي، دون العلوم النظريّة الراجعة إلى الأمور التكوينية، ويقرب منه البصيرة، والإفتاء، والقول.

الزعم: التصديق من حيث إنَّه صورة في الذهن سواء كان تصديقاً راجحاً أو جازماً قاطعاً.

العلم: الإدراك المانع من النقيض.

الحفظ: ضبط الصورة المعلومة بحيث لا يتطرَّق إليه التغيير والزوال.

(١) سورة الحاقَّة، الآيات ١-٣

الحكمة: الصورة العلميّة من حيث إحكامها وإتقانها.

الخبرة: ظهور الصورة العلميّة بحيث لا يَخفى على العالم ترتّب أيّة نتيجة على مقدّماتها.

فالملاحَظ في هذه الألفاظ الإدراكيّة أنّ بعضها يُعبِّر عن ترجيح إدراكيّ بدون يقين وقطع فيه، وبعضها يُعبِّر عن إدراك يحصل من خلال حضور صورة الشيء إلى الذهن بنحو من أنحاء الحضور المتقدمة التي لا يتعدَّى أرقاها حضور صورة الشيء في الذهن.

وهنا يبرز معنى الشهادة؛ لأنّ الشهادة هي نيل نفس الشيء وعينه.

ولعلّ المعنى يتضح من خلال التمييز بين ثلاث مراتب من المعرفة اليقينيّة:

الأولى: أن نتيقَّن بوجود النار بدون أن نراها، وهو ما يُصطلح عليه بـ علم اليقين.

الثانية: أن نتيقَّن بوجود النار من خلال رؤيتها بالعين المجرّدة، وهو ما يُصطلح عليه بـ عين اليقين.

الثالثة: أن نتيقَّن بوجود النار من خلال وضع اليد فيها، وهو ما يُصطلح عليه بـ حقّ اليقين، وفي هذه المرتبة فإنّ المعرفة تعني نيل نفس الشيء وعينه، لا صورته وماهيته.

بناءً على ما تقدَّم، فإنّ إطلاق الشهيد على المقتول في سبيل الله في السُّنّة النبويّة الشريفة يشير إلى النوع الأتمّ من الإدراك الذي يُمثِّل حقيقة الحياة الإنسانيّة، فبدون إدراك لا حياة، وبتكامل الإدراك تتكامل الحياة. وهذا ما يُشكِّل مدخلاً للمطلب الثاني حول الفرق بين الحياة العنديّة الواردة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1]، وبين الحياة العنديّة الواردة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾[2]. فما الفرق بين «**العنديّتين**»؟

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٦٩.

(٢) سورة الحديد، الآية ١٩.

المطلب الثاني : الشهيد بين عنديّة الرزق وعنديّة النور

تقدَّم إخبار القرآن الكريم أنّ المقتول في سبيل الله حيٌّ عند ربِّه، وأنّ مقام العنديّة هذه يتحقق فيه الرزق المتواصل، والفرح به، إضافةً إلى الاستبشار بالتحاق الإخوان، والاطمئنان التام.

فهذا المقام فيه الشهود الحضوريّ لنعم الله عزّ وجلّ، وهو على نحو تعدّي فعل «**شهد**» إلى المفعول به، وهذا ما استعمل في القرآن الكريم في أكثر من آية، من قبيل قوله عزّ وجلّ: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، فالمقتول في سبيل الله هو شهيد بمعنى المشاهِد نِعمَ الله المتفاعل معها.

إلاّ أنّ فعل «**شهد**» في القرآن الكريم لا يقتصر على التعدّي إلى المفعول به، بل يرتبط في آيات عديدة

(١) سورة الحج، الآية ٢٨.
(٢) سورة النور، الآية ٢.

بالجار والمجرور، وقد يكون الجارّ هو حرف «**على**» كما في قوله عزّ وجل: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[1]، والشهود في هذه الحالة ليس لنعم الله والتفاعل معها، بل هو يتعلّق بمقام شامخ له علاقة بالناس.

وقد يُحذف الجار والمجرور لفظًا، ويُضمران معنى، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾[2].

فهذه الآية تتحدّث عن نوع آخر من الشهداء، قد يكونون من المقتولين في سبيل الله، وقد يكونون في هذا الموقع الشامخ من دون قتل.

واللافت في هذه الآيـة أنّها تتحدّث عن مقام «**العندية**» ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الذي يعقبه الأجر ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾، وهو ما قد يكون ذلك الثواب الذي يشاهده

(١) سورة الحج، الآية ٧٨.
(٢) سورة الحديد، الآية ١٩.

الشهيد، ويحضر نعمه، ويتفاعل معها فرحًا بها، كما في آية المقتول في سبيل الله، إلاّ أنّ الآية السابقة تتحدّث عن إضافةٍ إلى الأجر في مقام العنديّة، وهو «**النور**» ﴿وَنُورُهُمۡۖ﴾ الظاهر بنفسه والذي له علاقة بغيره؛ إذ النور مُظهِر لغيره إضافة إلى ظهوره في نفسه، وهو ما ينبغي التوقّف عنده مليًّا للتعرّف على معنى هذا النوع من الشهيد القرآنيّ الذي له مقام «**عنديّة النور**» إضافة إلى «**عنديّة الأجر**» التي قد تكون عين «**عنديّة الرزق**» المتقدّمة في آية المقتول في سبيل الله.

شهداء عنديّة النّور

إنّ اللافت في الآية المتقدّمة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾[1]، أنّها تُخبر عن مقام عظيم يتمثّل بأمرين:

(١) سورة الحديد، الآية ١٩.

الأوّل: مقام الصدّيقين، فالصدِّيق هو من تحقّقت فيه أمور ثلاثة هي:

١- أن يكون خبره مطابقًا للواقع.

٢- أن يكون معتقدًا يقينيًا بما يخبر عنه.

٣- أن يكون فعله وسيره العمليّ ملازمًا لقوله واعتقاده، أي سرى الصدق في قوله واعتقاده وفعله، فيقول ما يعتقد، ويعتقد ما يقول، ويفعل ما يقوله ويعتقده[١].

الثاني: مقام الشّهداء، الذي يبدو أنّه لا يقتصر على مشاهدة النعم والكرامات الإلهيّة، بل هو يتعلّق بالناس، كما هو حال الشهداء في قوله تعالى السابق ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ﴾[٢].

وهذا يتّضح من خلال التأمّل في صدر الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ وهو مبتدأ وخبره ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ

(١) أنظر: الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١٩، ص ١٦٣.
(٢) سورة الحج، الآية ٧٨.

ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ ۖ﴾.

فاللافت في هذا أنّ قيمة الخبر العظيمة لا تتناسب مع الظاهر بدوًا من المبتدأ، فليس صحيحًا أن يكون مجرَّد الإيمان بالله ورسله يؤدّي إلى كون المؤمن بذلك صدّيقًا شهيدًا، فالمسلمون كلّهم يؤمنون بالله ورسله، فهل يعقل كونهم جميعًا صدّيقين وشهداء؟!

لا بدّ أن يكون مقصود الله عزّ وجلّ أمرًا آخر غير هذا الفهم السطحيّ لمطلع الآية. فما هو المقصود؟

إنّ المتأمّل في الآية يلاحظ أن متعلّق الإيمان لم يكن فيها «**رسوله**» أي الرسول محمد ﷺ، كما هو الحال في العديد من الآيات القرآنيّة، من قبيل قوله تعالى:

١- ﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[1].

٢- ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[2].

(١) سورة الحجرات، الآية ١٥.

(٢) سورة النور، الآية ٦٢.

٣- ﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[(١)].

٤- ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ﴾[(٢)].

٥- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[(٣)].

٦- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾[(٤)].

بل إنّ متعلّق الإيمان بعد الله عزّ وجلّ هو «**رسله**»، وهذا ما يفتح أفقًا في فهم المراد من الآية، فالإيمان الذي يوصل إلى مرتبة الصدّيق والشهيد هو الذي يتعلّق بفهم ومعرفة حركة الرسل التي عرضها القرآن الكريم في دائرة واسعة من الآيات الكريمة، لا لمجرَّد سرد التاريخ والسِّيَر، بل كي يعرف المؤمن موقعه من المخطّط الإلهيّ لقافلة البشريّة التي كان أبطالها الأنبياء عليهم السلام، لا سيّما الرسل منهم، وهذا ما يمكن شرحه مختصرًا من خلال

(١) سورة الفتح، الآية ١٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٨.
(٣) سورة النساء، الآية ١٣٦.
(٤) سورة الصف، الآيتان: ١٠-١١.

الإطلالة على سِيَر وتاريخ أولي العزم من الرسل الذين يشكِّلون قطب الرحى في مسيرة البشريّة، وهو ما أفاده الإمام جعفر الصادق عليه السلام في رواية معتبرة يقول فيها: «**سادة النبيّن والمرسلين خمسة، وهم أولو العزم من الرسل، وعليهم دار الرحى، نوح عليه السلام وإبراهيم عليه السلام وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم...**»[1]، فقوله عليه السلام «**وعليهم دار الرحى**» يفيد أنّهم المحور الأساس لحركة القافلة الإنسانيّة في مخطّط الله تعالى، فكلٌّ من هؤلاء الخمسة، أحدث نقلةً نوعيّة في تكامل البشريّة نوضحها بالآتي:

١- نوح عليه السلام ومجتمع التواصل مع الله

يوضِّح لنا القرآن الكريم أنّ المجتمع الذي عايشه النبي نوح عليه السلام كان ينكر الاتصال بين الله تعالى والناس عبر رسول بشريّ، وبالتالي فإنّ تواصل ذلك

(١) المفيد، محمد، المزار، تحقيق محمد باقر الأبطحي، ط٢، بيروت، دار المفيد، ١٤١٤هـ، ص ٤٢.

المجتمع مع الله عزّ وجلّ كان مقطوعًا وهذا ما يفيده قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1].

ما يُفهم من هذه الآية هو أنّ مشكلة قوم النبيّ نوح عليه السلام لم تكن في الإيمان بالله تعالى، ولا في تقبّل أصل التواصل بين الله عزّ وجلّ والإنسان، بل هي في كون الوسيط في هذا التواصل هو إنسان مثلهم، فإنّ استكبارهم منعهم من هذا الإيمان، وهم يتشابهون في موقفهم هذا مع إبليس الذي لم تكن مشكلته هي الإيمان بالله تعالى ولا بالسجود له، بل كانت في

(١) سورة المؤمنون، الآيتان ٢٣-٢٤.

السجود للإنسان الذي يرى إبليس نفسه بأنّه أفضل منه.

وقد حاول النبيّ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يوجد التواصل بين الناس وربّهم عبر الرسول الإنسان، إلاّ أنّ المهتدين بدعوته كانوا قلّة.

ويوضح القرآن الكريم أنّ الأمر قد وصل إلى حدِّ اليأس من تديّن سائر الناس غير مَن سبق إيمانه، لذا أوحى الله تعالى إلى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يصنع سفينة النجاة لتنقذ من عليها من الطوفان الأعظم. قال الله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[1].

نعم، استطاع النبيّ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يبني مجتمعًا يؤمن بالتواصل بين الله تعالى والناس عبر الرسول الإنسان، إلاّ أنه كان مجتمعًا يتناسب في حجمه مع سفينة الطوفان.

(١) سورة هود، الآيتان ٣٦-٣٧.

٢- ابرهيم عليه السلام ومجتمع التوحيد

وضّح لنا القرآن الكريم أن المجتمع بعد نوح عليه السلام انحرف عن مسار العلاقة الصحيحة بالله عزّ وجلّ حتى وصلت إلى عبادة التماثيل، فبعث الله تعالى رسوله إبراهيم عليه السلام؛ لتكون له مهمّة أساسيّة هي بناء مجتمع التوحيد المعتقد بأنّ المعبود ينحصر بالله الواحد. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[1].

وقد استطاع نبيّ الله إبراهيم عليه السلام بناء مجتمع موحّد مؤمن بالله تعالى نابذٍ للتماثيل والأصنام، وقد

(١) سورة الأنبياء، الآيات ٥١-٥٦.

تجلّى مجتمع التوحيد بأبناء خليل الله إبراهيم عليه السلام الذين استجاب الله تعالى فيهم دعوته التي حدّثنا عنها القرآن الكريم بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[1].

من هذه المحطّة الإبراهيميّة، ومن صلب النبيّ إبراهيم عليه السلام نشأ أبناء الدين الحنيفيّ الموحِّد لله تعالى من أبناء إسماعيل عليه السلام، كما نشأ مجتمع بني إسرائيل الموحِّد لله تعالى من أبناء إسحاق عليه السلام، والذي عانى محنًا وخطوبًا أوصلته إلى حالة الاستعباد في عصر فرعون، ليرسل الله تعالى لهم نبيًّا يخلِّصهم من محنتهم، ويكون قائد المحطة الثالثة، وهو رسول الله موسى عليه السلام.

٣- موسى عليه السلام ومجتمع التشريع

يوضِّح لنا القرآن الكريم أنّ الدور الأساس لنبيّ الله

(١) سورة إبراهيم، الآية ٣٥.

موسى عليه السلام كان صناعة مجتمع تشريعيّ يعيش أفراده على هدي الشريعة الإلهيّة، من هنا نلاحظ التأكيد على دور الكتاب والألواح والرسالات في محطة النبيّ موسى عليه السلام، وهذا ما نقرؤه في الآيات الآتية:

-﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[1].

-﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾[2].

-﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[3].

-﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[4].

-﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾[5].

-﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ﴾[6].

(١) سورة المؤمنون، الآية ٤٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية ١٥٤.
(٣) سورة الإسراء، الآية٢.
(٤) سورة الأعراف، الآية ١٤٥.
(٥) سورة الأعراف، الآية ١٤٤.
(٦) سورة هود، الآية ١١٠.

من هنا نجد أنّ اليهود، رغم التحريف الذي دخل على كتبهم المقدسّة، فإنّ مجتمعهم يتميّز بالاعتقاد بالجوانب التشريعيّة بين أفراده.

٤-٥ عيسى عليه السلام ومحمّد صلى الله عليه وآله وسلم ومجتمع العدالة الاجتماعية الكاملة

بعد أن ارتقى المجتمع الإنسانيّ من محطّة الإيمان بالتواصل مع الله عبر الرسول الإنسان، إلى محطّة الاعتقاد بتوحيد الله، إلى محطة المجتمع التشريعيّ، كان من المفترض أن تكون المحطة اللاحقة هي مجتمع العدالة الاجتماعيّة الكاملة، إلاّ أنّ كهنة اليهود وأحبارهم وقفوا سدًّا منيعًا أمام مشروع النبيّ عيسى عليه السلام، وبما أنّ عملية التكامل الإنسانيّ الاجتماعيّ اختياريَّة، وبما أنّ النبيّ عيسى عليه السلام لم يحقِّق مشروعه، فإنّ الله عزّ وجلّ، كما بيّن القرآن الكريم، رفع النبيّ عيسى عليه السلام إليه، ولم يُمِتْه؛ ليكون له هذا الدور في مستقبل آتٍ،

وجعل الله عزّ وجلّ العدالة الاجتماعية الكاملة هدفًا لرسالة الرسول الخامس والأخير من أُولي العزم محمّد بن عبد الله ﷺ، وهو ما نقرؤه في قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾[1].

وقد أكّد الرسول الخاتم محمّد ﷺ أنّ قافلة البشريّة سوف تصل حتمًا إل هذا المشروع من دون حضوره الشخصيّ، بل من خلال أحد أحفاده القادمين، يعني به الإمام المهدي عجّل الله فرجه الشريف الذي يعتقد جميع المسلمين أنّه سيُحقِّق هذا المشروع، فعنه ﷺ: «**لو لم يبقَ من الدنيا**

(١) سورة التوبة، الآيات ٣١-٣٣.

إلاّ يوم واحد، لطوَّل الله عزّ وجلّ ذلك اليوم حتى يخرج رجل من ولدي، فيملأها عدلاً وقسطًا كما مُلئت جورًا وظلمًا»(١).

وتؤكِّد الروايات النبويّة على دور عيسى بن مريم عليه السلام في حكومة المهدي عجل الله فرجه الشريف باعتباره شريكًا له في الحكم بعنوان عبَّرت عنه بعض الروايات بـ «**الوزير الأيمن للقائم**»(٢).

الشهداء والإيمان بالرسل

في ضوء ما تقدّم نقارب المراد من الذين آمنوا برسل الله في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ ﴾(٣).

فهم ليسوا مجرّد معتقدين بالرسل، بل هم العارفون

(١) الصدوق، محمد، كمال الدين وتمام النعمة، (لا،ط)، قم، مؤسسة النشر الإسلامية، ١٤٠٥هـ، ص ٣١٨.

(٢) البحراني، هاشم، غاية المرام، تحقيق علي عاشور، (لا،ط)، (لا،ن)، (لا،ت)، ج٧، ص ٩٣.

(٣) سورة الحديد، الآية ١٩.

الواعون لمسيرة الرسل، التي من خلالها يعرفون المخطّط الإلهيّ في مسيرة البشريّة منذ بدايتها إلى نهايتها، وبالتالي يعرفون موقعهم، وفي ضوء ذلك يحدِّدون دورهم في التكامل الإنسانيّ الاجتماعيّ الاختياريّ، ليسيروا على وفق ذلك فيكونون صدّيقين، يقولون ويعتقدون، ويسيرون كما هو قولهم واعتقادهم، فإذا كانوا كذلك، فإنّهم يكونون في موقع ومقام الشهادة على الناس، ولهذا، فإضافة إلى ثوابهم وأجرهم (لهم أجرهم) سيكونون في مقام عنديَّة النور؛ لأنّهم يكونون مظهرًا للحقّ ومُظهِرين دالّين وهادين إليه. فهؤلاء الشهداء هم شاهدون على الناس، إضافةً إلى كونهم مشاهدين لكرامات الله تعالى.

وبهذا نعرف الفرق بين المقتول في سبيل الله الذي يكون مشاهدًا كرامات الله ونعمه عليه متفاعلاً معها في عنديّة الرزق، لكنّه قد لا يكون في موقع الشاهد

في مقام عنديّة النور بسبب ضيقٍ في معرفته وشهوده الناظر إلى قافلة البشريّة ومخطّط الله فيها، وقد يكون الإنسان شهيدًا في مقام عنديّة النور من دون أن يُقتل في سبيل الله.

خاتمة

عرفنا في ما تقدَّم في هذا المبحث قيمة المعرفة، لا سيَّما في مراتبها العليا، وأنّها تمثِّل حقيقة الحياة الإنسانيَّة التي كانت هدفًا لدعوة خاتم الرسل محمّد ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ﴾[1].

على هـذا الأسـاس نفهم أحكام الإسـلام فرديّة كانت أو اجتماعيّة حتى تلك التي تظهر قساوتها في المجتمع؛ فإنها مرتبطة بالحياة أيضًا، كما يعبِّر عن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[2].

وهكذا نفهم حكم الجهاد الذي شرَّعه القرآن الكريم ضد المعتدين ومن يُخاف من اعتدائهم[3]، والذي قد

(١) سورة الأنفال، الآية ٢٤.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٧٩.
(٣) أنظر: بركات، أكرم، التكفير ضوابط الإسلام وتطبيقات المسلمين، ط٤، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر، ص ٢٠٠-٢٠٦.

يؤدّي إلى القتل، وهنا يؤكِّد القرآن الكريم أنّ القتل حينما يكون في سبيل الله فإنّه ليس إلغاءً للحياة، بل هو قوّة فيها؛ وذلك لكون المعرفة، كما تقدّم، هو الممثِّل الحقيقيّ لحياة الإنسان، وبالقتل ترقى المعرفة إلى رتبة الشهود التي هي أرقى درجات المعرفة.

وللإرتقاء أكثر في درجات الشهود يطرح القرآن الكريم مرتبة شهوديّة لا تقتصر على المشاهدة، بل بسعة إحاطتها بالمخطَّط الإلهيّ، ودور الإنسان فيه، والذي يتلوه العمل في ضوء ذلك الشهود، تكون شاهدة إضافة إلى كونها مشاهدة.

وهذا ما يفتح الآفاق عند السائرين في الدفاع الجهاديّ عن الإنسانيّ، ليرتقوا في حال قتلهم من رتبة الشهداء المشاهِدِين إلى رتبة الشهداء المشاهدين الشاهدين.

كما يفتح الآفاق عن من يُحرمون من رتبة القتل

في سبيل الله، ليكونوا بتصديقهم الشهوديّ لمخطّط الله وسيرهم في ضوء ذلك التصديق، شهداء شاهدين، فيكون لهم عند الله أجرهم ونورهم.

الفهرس

صدر للمؤلف

صدر للمؤلّف عن بيت السّراج للثقافة والنشر:

١. حقيقة الجفر عند الشيعة.

٢. حقيقة مصحف فاطمة عند الشيعة (حائز على جائزة أفضل كتاب لعام ٢٠٠٣ م في مهرجان الولاية الدوليّ في إيران).

٣. ولاية الفقيه، بين البداهة والاختلاف.

٤. دروس في علم الدراية (معتمد في المناهج الدراسية الحوزويّة).

٥. التكفير، ضوابط الاسلام وتطبيقات المسلمين (مترجم إلى الفارسية).

٦. محاضرات في الثقافة الاسلامية.

٧. هذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٨. برقية الحسين عليه السلام. (مترجم إلى الانكليزية والفرنسيّة).

٩. وليالٍ عشر (من وحي عاشوراء).

١٠. وأتممناها بعشر (من وحي عاشوراء).

١١. قافلة البشرية، من سفينة نوح إلى دولة المهدي عجل الله فرجه الشريف.

١٢. المسائل المصطفاة في أحكام الطهارة والصلاة.

١٣. أحكام النساء.

١٤. التبليغ من وحي التجربة.

١٥. خيوط القبعة.

١٦. حائك القبعة.

مجموعة يسألونك (مترجمة إلى اللغات الانكليزية والفرنسية والهوسا والسويحلي)، وتضم:

١٧. يسألونك عن الله.

١٨. يسألونك عن الأنبياء عليهم السلام.

١٩. يسألونك عن الأئمة عليهم السلام.

مجموعة تعارفوا:

مجموعة يزكّيهم، وتضم:

٣٢. برنامج السّير والسّلوك.

٣٣. هكذا تكون سعيداً. مترجم إلى الانكليزية.

٣٤. كيف ترجع كما ولدتك أمك؟

٣٥. شهر الله وآدابه-مناسباته- أولياؤه.

٣٦. لا تَقرَبوا.

٣٧. كيف نتواصل مع الله.

٣٨. Paulo em busca da verdade.

٣٩. **Assalat «A ORACAO NO ISLAM».**

٤٠. (UN RESUMO DOS DEVERES NO ISLAM)

٤١. رأيت في الجرود.

٤٢. فلسفة الشَّهادة، رؤية تحليليّة في ضوء قوَّة الإدراك ومتعلَّقاته

٤٣. الأمّة بين ولاية الفقيه ومرجعيّة التقليدفي فكر الإمام الخميني قدّس سرّه

٤٤.الأمّة بين ولاية الفقيه ومرجعيّة التقليد في فكر الإمام الخميني قدّس سرّه